إسلاميات
كاتب
مسيحي

5

عمر بن الخطاب
البطل والمثل والرجل

openeikandl.com

obeikandl.com

على الغلاف الداخلي لكتاب «عمر ...البطل والمثل والرجل» كتب الناشر أنه بقلم المفكر المسيحى الدكتور نظمى لوقا،كانت هذه صيغة جديدة لم أجدها فى أى من كتبه،سواء التى سبقت كتابه عن عمر أو التى لحقته.

لم يغير نظمى نص إهدائه كتبه،ظل كما هو:إلى السائرين فى الظلمة ومن يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى ضحايا التعصب الجاهل الأرعن على اختلاف عقائدهم،لكن الجديد والذى يكشف أن الكتاب صدر فى وقت أزمة مر بها الكاتب،أنه طرح قبل أن يكتب سؤالا هو:لماذا يكتب مفكر مسيحى عن الإسلام وأقطابه؟فكأنه أراد أن يدافع عن نفسه أو على الأقل يؤكد الدفاع الذى ذكره أكثر من مرة قبل هذا الكتاب.

(١)

السؤال كان صريحا،والإجابة كانت كذلك.

يقول نظمى:فى مطلع كتابه «محمد الرسالة والرسول»، كتبت هذه العبارة:من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور،وهى حقيقة مستمدة من تجربة العقل الإنسانى،أيا كان لون هذا الإنسان أو جنسه أو ديانته،فما من تدين صحيح يملى على هذا المتدين أن يغلق عينيه،أو أن يفتحهما حين يجد ما يوافقه،ويغمضهما حتى لا يرى مالا يوافقه،أو أن يضع على عقله حجابا يعطل نفاذه،أو أن يجعل على ذمته رقيبا يلتوى بها كى لا يقول الصدق بغير جمجمة ولا لعثمة،أو يكتمه إيثارا للهوى وإهدارا للكرامة.

والإسلام بكل ثرائه مصدر له وزنه للحضارة الإنسانية،وموضوع للدرس والاعتبار،لا يخص المسلمين دون سواهم،بل إنه بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الأمينة منهل مبذول لكل ذى عقل وبصيرة،ولا يشترط فى هذا العاقل

البصير طالب المعرفة أن يكون مسلما،فالإسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها،أما العقل فلا خصوصية له إلا معاييره النزيهة التى لا تعرف المجاملة ولا التحامل.

ويضرب نظمى لوقا مثلا حسيا مجسما لتقريب المسألة إلى ذهن من عساه يحتاج إلى هذا التقريب،يقول:جسمى ملكى ويخصنى فى المقام الأول بما هو جسم،بمعنى أنه لا يمكن أن يستخدمه أو يعيش به وبوظائفه الحيوية أحد سواء،مهما كانت درجة قرابته منى،أما حين يتعلق الأمر بمعرفة وظائف هذا الجسم،فهذه المعرفة لا شأن لأحد بها لمن يملك أسبابها ووسائلها ومنهجها،وقد لا أملك شئيا منها،فأكون أجهل الناس بجسمى الذى أعيش به،ويكون أدرى منى به الطبيب والعالم والدارس،حتى ولو لم تربطنى به صلة قرابة أو جنس أو لغة أو ديانة.

وكل ما يشترط فى هذا الطبيب أن يكون نزيها مخلصا باذلا أقصى ما يملكه من معرفة وفهم، وغبى ولا مراء من يحكم على طبيبى بأنه قريبى أو نسيبى أو تربطه بى عاطفة أو آصرة من الأواصر؛ لأنه يرى إخلاصه فى فحص جسمى ودراسة خواصه.

ومصدر خلط الناس فى أمر مثلى،ممن يدرس تراث ديانة غير ديانته أن الأمر يلتبس عليهم فى مفهوم الديانة،فالديانة عند هؤلاء المتعجلين فى الحكم عقيدة قوامها الانتماء الإيمانى ولا شئ آخر،ويغيب عنهم أن لها مفهوما آخر،إلى جانب مفهوم العقيدة الإيمانية،وهو أنها موضوع يصلح للدراسة المعرفية،وليس هناك ما يوجب إطلاقا أن يكون الدارس لهذه العقيدة منتميا إليها مؤمنا بها،لأن الدراسة شئ غير الانتماء الإيمانى،الدراسة نشاط معرفى،لا علاقة له أصلا بالانتماء الدينى

وهنا يجدد نظمى لوقا سؤالًا،إذ ما الذى يدعو مفكر مسيحى،أن يكتب عن الإسلام وأقطابه،ويجيب فى أسباب محددة:

السبب الأول: أنه يفكر والمفكر عالما كان أو فيلسوفا من حقه قطعا أن يعمل عقله وقدراته المعرفية فى كل ما له شأن وأهمية من الأمور،وتراث الإسلام وأقطابه ركائز لها أهميتها وأثرها الكبير فى أمور العالم وتطور تاريخها ولا سيما فى المنطقة العربية.فإذا كان هذا المفكر عربيا صار نظره فى هذه الأمور الخطيرة واجبا لا حقا جائزا مباحا فحسب.

والسبب الثاني:أنه مسيحى والمسيحية تأمر بالمحبة،للعدو والصديق على السواء،وأول مراتب المحبة هى التطوع وإيفاء العقيدة المخالفة حقها غير منقوص من التقدير والتقييم،فبذلك يكون هذا المفكر المنصف مخلصا لمسيحيته وروحها المتميزة بالسماحة والحب،مثلما هو مخلص فى الوقت نفسه لمهمته المعرفية ومنهجها العقلى النزيه المتجرد من الأهواء العمياء،من رضا أو سخط متى قاما على غير أساس صحيح من الإحاطة النزيهة بالموضوع.

ويقول نظمي:«فإذا كان المفكر المسيحى عربيا،فالداعى لهذه البحوث فى الإسلام بتراثه وأقطابه أوجب؛ لأنه عندئذ يعرف عشراءه ومواطنيه وقومه المعرفة التي ترضي العقل،وترضي سماحة المسيحية،وترضى الواجب القومى والوطنى على السواء.

وغير خاف أن تراث الإسلام حافل بما يعنى الإنسان،فليس من الخير للبشرية أن تحجب عنها هذه الكنوز من الخبرات والتجارب والقيم والسلوكيات،وما أحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب،ويعنيه كل شعاع مضيء ينبثق منها لينير للبشر،بما هم بشر أيا كانت عقائدهم وقومياتهم التى تعقدت وتشعبت فيها المسالك وانبهمت فيها المعايير.

ولست أفهم كيف تستطيع أمة – كالأمة العربية – أن تعيش كما ينبغى أن تعيش

ما لم تعرف كل طوائفها،سواء من الأغلبية أو من الأقليات،حقيقة تراثها القومي الذى هو ملك للبشرية كافة،وهو من باب أولى قسط مشترك بين كافة طوائف الأمة العربية أولا،ولست أعقل أن يجهل قسم من أقسام هذه القومية العربية ما لدى القسم الآخر من فكر وفهم وقيم،فلا غنى عن المعرفة النزيهة بالجانب الآخر وقيمه وتراثه.

ولئن كان من عمل الدعاة والوعاظ أن ينشروا معرفة التراث بين المنتمين إليه،لمحو أميتهم المعرفية والفكرية بتراث ديانتهم،فليست هذه مهمة المفكر العلماني،الذى ليس داعية ولا واعظا لبنى ملته،بل الأولى به أن يكون قدوة ومثلا لبنى ملته فى التعرف على تراث الملة الأخرى بكل الموضوعية والتجرد من التحامل،ليقدم لهم نفائس تراث هذه الملة التى تنفع معرفتها أبناء ملته،وأبناء الملل الأخرى على السواء؛ لأن منهجه عقلى نفسى موضوعى،والناس فى ملته وفى غيرها سواسية فى الهواء الذى يتنفسونه والماء الذى لا حياة لهم بدونه».

ويلخص نظمى لوقا كل ما يريده بعد ذلك قائلا:« ثم فليعلم من لم يعلم بعد أو لم يفهم أننى قد أكتب فى أمور تتصل بالدين عن قرب أو عن بعد،ولكنى لست كاتبا دينيا،ولا أمارس الكتابة بمنهج دينى،بل بمنهج فكرى ومن منطلق إنسانى،ومن المستوى الذى يعنى الناس كافة،ويشترك فيه كافة العقلاء...إننى مسيحى أجل..ولكنى لا أكتب بالنظرة العقائدية المسيحية،وأكتب عن الإسلام، ولكن ليس بالنظرة العقائدية الإسلامية،بل بالنظرة الإنسانية العامة،اكتب عن الإنسان للإنسان بما هو إنسان».

(٢)

وقبل أن يمرق نظمى لوقا إلى عمر بن الخطاب يوجه دعوة للجميع.

يقول: «أضيئوا جميع الأنوار، كي يرى كل طرف ما لدى الطرف الآخر على حقيقته بغير خفاء فتطمئن نفسه، ولا يبقى أى حاجز نفسى بين أصحاب الديانات، فالكل يعبدون الإله الواحد، وإن اختلفت الأساليب، إلا أن المعنى واحد، والمقصود واحد، ولكل فريق بعد هذا لانتمائه إلى عقيدته التى لا يجهلها الآخرون، ولا يسيئون فيها إلى الرأى عن جهالة، ولا تحف بها فى وهمهم الخرافة التحقيرية المزدرية بدافع الكراهية العمياء، وبذلك لا يكون لكل فريق إنتماؤه الإيمانى، مع التواد الذى لا تعشش فى كنفه بغضاء، ولا ينبت منه تعصب أعمى، يجمع بين الجهل والتهور، ويعبر عن سلوكيات عداونية شأن كل كراهية».

نظمى يرى أن الحاجز النفسى بين أصحاب الديانات والذى نشأ بين أصحاب الديانات بحكم فساد التربية النفسية والفكرية يقاوم إضاءة الأنوار، ويحرص على حماية الجهل، ويدافع عنها بإستماتة، فى الحالات الحادة من استفحال ذلك الحاجز النفسى، ويأبى أن يصدق كل حديث صادق عن حقيقة الآخر، وفى هذا شاهد عظيم الدلالة على أن الحقيقة لا تقنع إلا الإنسان المخلص فى طلبها والمستعد لتلقيها فى نزاهة وخلو من الهوى والتحامل، أما من احتشدت نفسه بالأهواء المغرضة، فالمعرفة النزيهة لا تجد عنده قبولا؛ لأنه أشبه بمن يضع على عينيه عدسات لاصقة ملونة أو ملتوية السطح، فلا يمكن أن يرى ما يوضع أمام بصره – مهما قربته منه وجلوته له – إلا ملونا أو ملتويا.

ويأخذ نظمى لوقا مما حدث معه شاهدا على فكرته الأساسية، يقول: «الذين أهلهم استعدادهم الفطرى للنزاهة أن يفهموا حملتى للتعريف والتنوير العقلى الموضوعى فى مجال الإسلاميات، وأن يتبينوا بفطرتهم النقية أنها ليست عملية تحيز لعقيدة أنتمى إليها، بعد أن ناديت فى كل كتبى أن انتمائى للعقيدة المسيحية لا خفاء

أو مواربة،ولكن غيرهم ممن تنطوى أعماقهم على التحيز لما ينتمون إليه من هذا الفريق أو ذاك،ولا يتصورون موقفا يعلو على هذا التحيز أو يتخلص منه،لذا ساورهم الظن أن وراءه واجهة عدم التحيز الفكرى التى أعلنها للناس سريرة متحيزة للإسلام والمسلمين،وكم مسنى من هذا ضيق وإعنات شديد،وليس الضيق والإعنات لما ينزل بمشاعرى الشخصية فحسب،فما كان أهون هذا،بل الجانب الأكبر من هذا الضيق مصدره ما أشعرنى من أننى أرمى بها أحاربه فيهم،أى أننى أتكلم لغة عربية لا يفهمها من أخاطبهم،وإننى وقفت جهدى لقضية محكوم عليها بالعقم؛ لأن العامة غير مستعدين لها».

وللأسف الشديد يعترف نظمى لوقا إعترافا جارحا للغاية له ولكل من يكتب،يقول:«وكلما سمعت نبأ فتنة دينية فى جزء من الوطن العربى انتابنى الاكتئاب وشعرت أنى لبثت قرابة ربع قرن أنفخ فى قربة مقطوعة».

لكنه كان يقاوم هذا الاكتئاب من خلال قناعته بأنه يكتب فى الإسلاميات لسببين كما قالهما هو:

أولا:لأنى أؤمن بما نادى به السيد المسيح،قبل أن تخرج القذى من عين أخيك، أخرج أولا الخشبة التى فى عينيك.

ثانيا:أن من أراد الإصلاح فليصلح أهله قبل أن يصلح سواهم من الناس،ليتعقب أهله بالإصلاح مهما اشتد،فهو مجلبة نفع لهم،إذ يعلمهم الإنصاف، وهو مصلحة لهم قبل أن يكون مصلحة لمن ينصفهم.

(٣)

ومن أسئلة نظمى العامة عما يفعله،إلى سؤال أكثر تخصصا عن عمر،وهو :لماذا كتاب جديد عن عمر بن الخطاب؟

وكانت الإجابة كما قالها هو:«من حق أى قارئ عربى أن يتساءل:ولماذا يكتب نظمى لوقا كتابا عن عمر بن الخطاب،وقد سبق إلى الكتابة عنه فى هذا العصر عالمان شامخان من أعلام الفكر والأدب،هما عباس العقاد وحسين هيكل...؟وهل تركا قولا لقائل؟

وهو سؤال له وجاهته،والإجابة عنه تقتضى نظرة هادئة إلى علاقة أى كاتب بالموضوع الذى يتناوله،ومجمل هذه العلاقة أنها علاقة فكر لا منهج معين،ونفس لها مزاج معين ومن ثم له رؤية معينة للموضوع،ولقد كان ما يكتبه هيكل أقرب إلى السيرة التى تتعقب الأحداث والأعمال بالرصد والتسجيل والتحليل،وتنتهى إلى تقييم شامل متوازن.

وأما العقاد فلم يفارقه حس الشاعر،وحماسة العاشق،وهو يعمل فكره فى تصوير شخصية عمر وتفسيرها،فلم يفارقنى الإحساس أننى أمام موكب ملكى رائع أقامه العقاد لحبيبه عمر،وحشد له طاقته المذهلة فى المنطق والبلاغة وسحر البيان،فجاءت عباراته أشبه بعربة مذهبة تجرها الجياد المطهمة،ويحف بها الفرسان الدراعون الصناديد.

ويتساءل نظمى:«أفأكتب عن عمر سيرة أخرى،أبارى بها الدكتور هيكل،ليس هذا اتجاهى،ولا أرب لى فيه،ولا حاجة إليه أيضا،ففى السيرة العمرية التى كتبها الدكتور هيكل كفاية لا أحس حاجة معها إلى مزيد،وليست الزيادة عليها ميسرة لمن شاء،فالصمت إذن أولى».

ما قدمه نظمى فعلا عن عمر كان عبارة عن رؤية إنسانية محض،مدنية محض،تتناول عمر بن الخطاب من حيث هو بشر يتمثل فيه مستوى رفيع من الصفات الإنسانية تجعل منه مثلا رفيعا لكل من يتطلع إلى المثل الرفيعة فى السلوك

والنهوض بالأعباء الجسام.

رؤية تنحصر فى تبين عمر الإنسان الذى تعم فائدة التعرف إليه البشر جميعا،فهى ليست رؤية أدينية بعينها ما قد يرتفع بعمر بن الخطاب عن المستوى البشرى،وما قد ينسب إليه من صفات ووسائل خارقة لا يتيسر الإنصاف بها لكل إنسان.

الكرامة فى هذه الرؤية هى كرامة البطل،وتفوق سلوكه لا مصدر له إلا ذلك التكوين البطولى،الذى لا يستمد مكانته من القدرات الممتنعة على سائر الناس،بل من الاحتشاد الإنسانى المحض للمستوايات التى يلتزم بها من تلقاء نفسه،ويندب لها نفسه قياما بحق النخوة والمروءة،ووسائله لتحقيقها هى - على الخصوص - وسائل إنسانية متاحة لسائر الناس،إن هم راضوا أنفسهم على تكاليف الأخذ بها،ولا ينفرد بوسائل اختص بها دون سواه؛ لأنه بذلك الإنفراد بالوسائل والموارد لا يكون المثل ولا يكون الرجل ...بل المعجزة.

ويؤكد نظمى على ما قدمه:«ليس لأحد أن يتوقع منى سيرة لعمر،ولا قصيدة إنبهار بعمر،بل دراسة لسمات البطولة عموما من خلال صورة عمر ومواقفه،وكيف وجهت فطرة البطولة فى ذلك البطل المطبوع مراحل حياته،وكيف شكلت وكيفية أفعاله وتصرفاته.

إن عمر عند نظمى لوقا بطل مطبوع على البطولة،ولكنه أيضا صاحب مزاج نفسى خاص،يمارس به بطولياته،وهنا يجد المتأمل المجال واسعا لتمييز ما يصلح أن يكون من تصرفاته مثلا للناس كافة؛ لأنه ليس تعبيرا عن مزاج تفرد به عمر الرجل فحسب،بل هو تعبير عن تجاوزه لذاته إلى النمط الموضوعى الذى يستوى فى الانتفاع به،والإخلاد إليه سائر العقلاء على اختلاف دياناتهم وأمزجتهم النفسية.

عمر الرجل فرد له ذاتيته الخاصة كسائر الناس،أما عمر البطل فهو احتشاد لهمة

ترتفع فوق الذاتية المحدودة لتجسيد مبدأ موضوعى يسمو فوق الاعتبارات الذاتية الخاصة،فسمة الرجل أن يكون العمل معبرا عن ذاتيته ومزاجه الخاص وأحواله المعينة،أما سمة البطل فإن تتجاوز ذاتيته ومزاجه،فيكون مثلا لكل بنى البشر،تلغى فى مواجهته الحوائل والحواجز الذاتية والفئوية.

(٤)

هذه مشاهد متفرقة من حياة عمر لكنها فى النهاية مشاهد تضع أيدينا على ما أراده نظمى لوقا إيضاح البطولة والمثل والرجولة لدى عمر.

يسأل نظمى:«أى الفتيان كان عمر؟...إن أى فتى يشترك فى تحديد شخصيته تكوينان أو تأثيران،أحدهما تكوينه الجسدى وما ركب فيه من قدرات وميول فطرية،والآخر تكوينه البيئى،وما أثرت به ظروفه الاجتماعية فى تشكيل هذه الطينة الفطرية لتقوية جانب منها،وكف جانب آخر أو مصادرته أو قمعه بعض الشئ وكل الشئ،فيتمخض هذا التفاعل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب عن كيان محددالسمات».

أما عن تكوينه الجسمانى فقد كان عمر مفرط الطول،فاره البدن،قوى البنية قوة تفوق المألوف وتلفت النظر كما يلفته طوله البائن،حتى قيل: أنه كان يمشى بين أقرانه فكأنه راكب وهم مشاة،وفيه عنف وخشونة واندفاع إلى الغضب وسرعة بديهة ونفاذ فراسة ولطول ساقيه وقوته الحيوية والعصبية كان واسع الخطو،لا يلاحقه السائرون معه،فلا تكون لهم حيلة إلا السير فى أثره كأنهم فى ركابه.

وأما البثية التى شب عليها هذا الفتى العملاق الغضوب القوى البأس،وإلى أى حد شاركت فى تنمية هذه العناصر من تكوينه،وإلى أى حد كفت بعضها أو علت من مساره،حتى صارت له أنماط سلوكية لاصقة بشخصيته؟

فهو فتى عربى قرشى،نشأ فى مكة موطن قريش،التى كانت تضرب لها أكباد الإبل فى شتى أنحاء الجزيرة فى مواسم الحج والتجارة،ولكن قريشا فى ذلك العهد كانت بطونا وعشائر متباينة ليست سواسية فى القوة والجاه والشرف والثراء،فمن أى البطون كان عمر؟

لقد كان من بنى عدى بن كعب....وبنو عدى هؤلاء من البطون ذات المكانة والسمعة فى قريش،ولكنهم لا يتولون شيئا من المناصب الكبرى فى القبيلة الأم،فقد استأثر بهذه المناصب من السقاية والسدانة واللواء،ومنع إلى ذلك بنو هاشم وبنو أمية وبنو مخزوم،ثم هم لا يملكون ما يعوضهم عن المناصب العليا ثروة طائلة، ولكنهم مع هذا من ذوى الوجاهة،فى الصف الثانى إن جاز هذا التعبير الحديث.

والعهد فى القبائل – ولا سيما فى زمن الجاهلية – أن تتنافس البطون والعشائر داخل القبيلة الواحدة تنافسا عنيفا ضاريا،فما لبثت عشيرة بنى عدى فى زمن والد عمر بن الخطاب أن أجبرت على الجلاء عن منازلها التى كانت تحتل موقعا ممتازا بين أراض مكه،والنزوح إلى موضع بعيد عن الأمكان المرموقة،ليقيموا فى جوار بنى سهم،وبذلك هبطت مكانتهم فوق هبوطها،بسبب قلة أعدادهم وقلة أموالهم،ولم يبق لهم من الوجاهة إلا ظل ممتد قديم ونسب عريق ، وليست لهم عدة بين العشائر والبطون إلا الاعتداد بالكرامة التى يتشبثون بها رغم رقة الحال،فيزيد ذلك من حساسيتهم وشعورهم بالمضاضة والغبن والبخس.

ومن شأن هذه المشاعر أن تؤجج فى أصحابها حدة الطبع والأنفة والحمية،ولكن قلة ما تحت يدهم من الحول والطول والعدد والعتاد يجنح بهم إلى التحامل على النفس وإيثار صيانة المكانة المهددة ما وسعهم ذلك بالوقار والحكمة والرزانة .

ولذلك كان القوم من قريش ينتدبون قومهم من قريش لمجالس التحكيم ووفود

المفاوضة أو السفارة،وهى مهام تضفى عليهم ما يعوضهم عن الحرمان من المناصب الكبرى فى الدين والحرب والاقتصاد،صحيح أنها مكانة فى الصف الثانى،لكن أصحابها يقبلونها على مضض،ويرحب أى فرد منهم بالمجال الذى يتيح له إبراز كفاءته أو قدرته الشخصية ما وجد إلى ذلك سبيلا،ليخترق حاجز الفاقة والخمول النسبى الذى ضربته المنافسات القبلية على رهطه،ولينجو من ذلك التوتر الحاد بين الكبرياء والبخس.

وهنا يأتى سؤال،حول تفاعل تكوين عمر البدنى والنفسى مع هذه البيئة الاجتماعية والنفسية؟فالفتى عملاق خارق القوة،وهذه كلها عناصر تجعل إحساسه مضاعفا بوطأة التوتر بين الكبرياء والبخس،فلا عجب أن يجنح تكوينه الخارق للعادة هذا إلى أن يجد متنفسا لهذا التوتر الذى يضغط على نفسه،بعض هذا المتنفس يتيحه له المجتمع القرشى الجاهلى،وهو مهام السفارة والتحكيم،ولكنه لا يتيحه له بصفة خاصة،بل لأى فتى فى مثل نسبه من عدى،ومن الطبيعى وهو متنفس عام غير خاص أنه لا يرضى كل الإرضاء فتى شديد التفرد فى صفاته مثل عمر.

وعليه فقد ذهب عمر ينشد لنفسه المتنفس الفردى الذى لا يتاح لأى فرد آخر من قومه،وهو حلبات المصارعة ومبارياتها،فغدا مصارعا مرموقا متفوقا لا يثبت له خصم،ولو كان صاحب هذه القوة الخارقة التى لا يقف أمامها أحد خاليا من الفطرة الخلقية،لسلك المسلك الذى يغرى الكثيرين من أقوياء البنية،فغدا معتديا يستثمر قوته الخارقة فى الإرهاب وابتزاز الإتاوات،أو لغدا قاطع طريق مثير كثيوين من صعاليك العرب،ولكنه لم يمارس قوته إلا فى مباريات المصارعة العلنية التى يشهدها الناس،وليس فيها أى لون من ألوان الغيلة أو الغدر أو الاستغلال الشخصى الرخيص.

كانت لدى عمر فطرة خلقية،وهى الفطرة التى يكون لها انتماء وولاء لقيمة عليا تتجاوز الذات، أى تعلو بسلوك صاحبها عن الانصراف إلى لذاته ونوازعه الذاتية،التى لها نظائر عند سائر الحيوان،بل تجعل له حدودا لا يتعداها ولاء لهذه القيمة.

لكن ماذا كانت هذه القيمة؟

لم يكن زمان فتوة عمر وشبابه زمان حرب وكر وفر،فلم تكن هناك إذن قضية عليا يوجه إليها عمر طبعه المنتمى فى ساحات النضال، فلم تبق أمامه إذا إلا المتنفسات المتاحة فى مجال السلم،وهى الإسراف فى الخمر،أو الإغراق فى إتيان النساء بالإكثار من الزواج،وكلاهما مصرف قوى لطاقة العملاق الجارفة،فهى أيضا كالمصارعة،مباريات فى الشراب ومصاحبة الغوانى والتنافس عليهن.

كان عمر إذن بطل مطبوع،ولكنه لا يجد القضية التى تتجلى فيها روح البطولة،من الولاء ونصرة القيمة العليا،فذلك الفتى الجاهلى فى زمن السلم والأمن يشعر أن شرف القبيلة مصان لا يتهدده خطر من أى نوع،فالقبائل كلها تبجل قريشا،وهو لا يعرف قيمة أعلى من شرف القبيلة يكون لها ولاؤه وانتماؤه،ويمارس فى إعلائها روح بطولته.

إلى جانب ذلك كان عمر بن الخطاب شديد الاعتداد بنفسه،مع يقظة فى الحس والذهن تضارع قوة بدنه،ومع فراسة صائبة تتجاوز طاقة المحيطين به كما تتجاوز خطوته الواسعة خطواتهم،وكان اعتداده بنفسه وبرجولته مقترن بأنه لا يعتد كثيرا بالنساء وإن رغب فيهن،فهن فى إحساسه أدوات أو دمى أو وسائل،قد تكون لاذة وقد تكون نافعة،وقد تكون إليها حاجة ولكنها ليست ذات بال،بل لا تسمع لها كلمة،مخلوقات هى فى نظره من الدرجة الثانية.

ويبرر نظمى لوقا هذه النظرة الدونية التى كان يبديها عمر للنساء بقوله:«ولم يكن عمر فى هذا شذوذا خارجا عن المألوف بين رجال زمنه،ولا كان ذلك علامة على قصور أو جمود فى التصور والتفكير،فهذا هو المعلم الأول أرسطو لا يجعل للمرأة – سامحه الله – أكثر مما جعل لها الرجال فى الجاهلية عموما ولا سيما عمر».

ثم أن هناك أمرا آخر،وهو أن تكوين عمر الرجل لا يسمح له بأن يكون عاشقا متيما هائما،فهو لاعتداده بنفسه يستخدم المرأة،ولكنه لا يترك لها زمام نفسه،ومقاليد لبه،ولكنه قادر على الود،لمن يودهم ويقدرهم من الرجال،إلا أنه ود من يملك مشاعره ورشده وأحكامه تمام الامتلاك،فليس لإنسان مهما أحبه عمر أن ينسيه يقظة ذهنه وصدقه ونزاهته فى وزن الأمور.

كان عمر كذلك شديد الحمية والغيرة،والغيرة من طباع ذوى الحدة والحمية واتقاد الطبع والاعتداد بالنفس،إذ يلحق بالاعتداد بالنفس حماية ما فى الحوزة،وأشرف ما فى الحوزة العرض والسمعة،ومع حدة الطبع توجد لدى القوى الخارق القوة غلظة وصراحة لا تعرف المداراة لأنه لا يجد أمامه أحدا يحوجه إلى تكلف المداراة،ولكنه فى مقابل هذا أيضا صفة نابعة من فطرته الخلقية،هى محاسبة النفس،حيث لا يجرؤ أحد على محاسبته،وكانت هذه الفطرة هى الشعرة التى تفرق بين البطل والوغد،وهذه الفطرة الخلقية هى التى تقوم بالمراقبة والنقد الذاتى،لدى ذلك الرجل الذى لا يجسر على مساءلته وتحدى جبروته وعنجهيته أحد.

(٥)

ولأن عمر كان يدافع عن شرف القبيلة،فقد تصدى للرسول محمد ولصحابته، عندما خرج ليدعو قريش أن ينبذوا عبادة الأوثان ويعبدوا إلها واحدا،كانت هذه قضية شاحذة لهمة عمر ولروح البطولة فيه،كى ينبرى للدفاع عن شرف القبيلة،

وهو عنده القيمة العليا التى لا يعرف يؤمئذ قيمة أعلى منها فى الوجود،ولم تكن هناك أى غرابة أن يكون عمر الجبار البطل المطبوع من أشد الناس عداو ة لمحمد ودعوة محمد،التى يسميها دين الإسلام.

ويسأل نظمى لوقا:«أكانت عبادة الأصنام أهلا لاستثارة كل هذه الحمية فى نفس عمر بن الخطاب،الذى كان معتدا بفطنته وفراسته ويقظة حسه،بحيث يصب كل جبروته على أتباع محمد،وهم أناس ضعفاء،فيهم النساء والأحداث والشيوخ وكلهم مسالمون لا من أهل البغى والعداون؟».

والإجابة:«أكبر الظن أن الأمر لم يكن بهذه الصورة،فمثله لا يمكن أن يخفى عيه أن هذه الأصنام حجارة صماء لا تضر ولا تنفع،أليس هو الذى كان بعد الفتح وفى عهد خلافته،ما أن يطوف بالكعبة ويأتى إلى الحجر الأسود،حتى يقول له:لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»،فهو فى حسبانه حجر لا يضر ولا ينفع،فإذا كان هذا مبلغ يقظة عقله وحسه فى مناسك الدين الذى آمن به وجاهد فى سبيل نصرته،فأين كانت يقظة عقله وحسه فى عهد الوثنية؟»

لا تفسير لذلك كله يقبله العقل،سوى أن هذه الأوثان لم تكن ذات حرمة لديه لذاتها،أى من حيث هى أوثان وأحجار،بل من حيث هى رموز،لشرف القبيلة وتراثها وتقاليدها ومكانتها الموروثة المصانة،شأنها شأن الراية،التى هى خرقة من القماش مثل الخرق التى تستخدم فى أحط الأغراض،ولكن قيمتها ليست فى كونها خرقة من القماش،بل فى كونها رمزا للوطن أو الجيش أو الفريق الرياضى وما إلى ذلك.

ولذلك فلم يكن جبروت عمر وعتوه على المسلمين عن إيمان منه وطيد بالأوثان،بل عن إيمان منه وطيد بأعلى قيمة عرفتها نفسه حينذاك،وهى شرف

القبيلة التى سفه محمد أحلامها وحقر آلهتها،فكان شرف القبيلة هو القضية الكبرى أو القيمة العليا التى اعتقد عمر أنه لا قيمة تعلو عليها،فهى أجدر بأن توهب لها كل حميته وروح بطولته؛ لأنها باتت فى خطر واضح صريح مثل خطر الحريق،هكذا كان اعتقاده،وهو اعتقاد أشبه بالفجر الكاذب الذى يحسبه الساهر الفجر الصادق،وهو ليس كذلك.

(٦)

وكان لابد للفجر الصادق أن يأتى.

وكان لابد أن يجد البطل قضية حقيقية لحياته.

لقد أسلم عمر فى لحظة،عندما سمع القرآن يتلى فى بيت أخته،لكن نظمى لوقا يرى أن هذه الرواية توهم أن ميل عمر إلى الإسلام كان من تأثر اللحظة،وهو فى الحقيقة أمر لايسوغ فهمه على هذا الوجه السطحى،بل جاءت هذه اللحظة بمثابة الذروة لتأثيرات تراكمية تتابعت على المدى الطويل،فى سريرة ذلك العملاق النافذ البصيرة،فأقرت فى نفسه المرة تلو المرة،وفى الموقف تلو الموقف أنه وهو المحارب الذى لا يقوم له أحد ولا ينال ما وراء ظهره على حد تعبير معاصريه،وهو نفسه أمام سلاح سرى من نوع جديد وغريب عليه تماما،يجعل أضعف الخلق بنية أعصى على الهزيمة ببطشه من الجبابرة ذوى البأس الشديد.

كان عمر يجرب مرة أخرى موقف العجز،فى الوقت الذى أراد فيه أن يقضى على شعوره بذلك العجز الساحق لكبريائه،بقتل مصدره محمد،ها هو يجد ذلك السلاح الذى يشعره بالعجز التام متمثلا فى أقرب أهل رحمه إليه،فى شخص أخته،التى ما زادها الشج وتدفق الدم إلا تحديا له أن يصنع ما يشاء.

ها هنا انحسم الموقف ، وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير وليس الفعل

للقشة في حد ذاتها،بل لما كان قد تراكم قبلها فوق ظهر البعير من الأحمال التى وصلت إلى أقصى طاقته،فلما أضيف إلى هذه الأحمال الثقال المتوارية فى سريرة عمر ذلك الثقل الجديد،كانت هذه هى الضربة القاضية.

لم يكن المخرج إذن قتل محمد،بل المخرج هو الانضمام بجبروته إلى محمد،فها هنا قضية إيمان كونى تتجاوز قضية القبيلة وتراثها،ها هنا القضية التى تستحق أن توهب لها حياته وتحتشد لها بطولته الفطرية.

وهكذا حدث الانقلاب فى نفس عمر،فإذا أشد الناس على المسلمين،وقد بات أشد الناس على أعدائهم واعتاهم فى الذود عنهم،ونصرة ما يؤمنون به ويدعون إليه.

لقد أيقن عمر أن المعسكر الذى يليق به هو معسكر الإيمان بالقيمة العليا التى تدبر الكون ويمتد بها سلطان الروح فيرفع البشر من مستوى الحيوان الفانى الهالك،إلى مستوى الخلود والبعث وحمل التبعات والاعتصام بالمبادئ الكونية،وليس المعسكر الذى يجعل الآدمى حيوانا زائل الوجود،يعيش ثم ينفق،ثم لا يكون بعد ذلك إلا عدما،لن تكون حمية البطل المطبوع فى نصرته لقضيته الكبرى أقل بلاء مما كان فى مناوأتها وخذلانها،وهو حقيق أن يكفر عن ذلك العتو فى حربها بالاستماته فى تأييدها والنضال فى سبيلها.

(٧)

عندما دخل عمر بن الخطاب الإسلام لم يخفِ إسلامه بل أعلنه،ولم يكن إعلان إسلامه هذا مسألة إعلان للكافة فحسب،بل هى حركة أشبه ما تكون بجر الشكل مع حلفائه السابقين،فهو لا يكتفى بإطلاق من كلفه بنشر خبر إسلامه – وهو جميل بن معمر – هكذا فى القوم،بل يتدخل ليزيدهم غيظا وتحرشا،كأنما يغريهم بافتتاح

المعركة القتالية معه.

يقول نظمى: «ألم أقل أنه قوة ضاربة متحدية،لا مانعة رادعة فحسب،وتكاثر عليه القوم،وهو يجالدهم ويجاهدهم بمفرده حتى الظهر،فأصابه الإعياء،فيكون قوله لهم أشبه بالاعتذار عن نفاذ طاقته لكثرتهم:لو كنا ثلاثمائة رجل مسلم لناجزناكم،فإما أجليناكم عن مكة،أو أجليتمونا عنها».

كانت هذه مرحلة جديدة إذن فى الدعوة الجديدة،مرحلة التحدى والحرب من جانب المسلمين،لا من جانب المشركين،كما كان الأمر من قبل،وهكذا كان إسلام عمر بداية مرحلة التحدى والتصدى لا مرحلة الموادعة والمدافعة،ولولا والد عمرو ابن العاص،وهو العاص بن وائل بن سهم الثرى والوجيه الأمثل،لما انتهى ذلك اليوم هكذا،فقد ذب عنه الناس وأجاره،ومن عجب أن عبد الله بن عمر عندما سأل أباه بعد الهجرة إلى المدينة بعد سنين،من هذا الرجل جزاه الله خيرا،كان رده العجيب هو فلان وأردفها بقوله: لا جزاه الله خيرا.

وهذا الاستدراك أدل على مزاج عمر الرجل ذى الطبع المعين والذاتية المعينة من أى تعبير آخر،فهو لا يستهويه ويأسره معروف الرجل الذى لا شك فيه،بل يدعو عليه،فليس يغفر له فى نظره مهما فعل أنه لم يسلم ومات على الشرك،وهذه سمة عمرية،لا يشاركه الكثيرون فيها،وهى عدم التسامح بأى ثمن ولأى مقتض مع أعداء إيمانه،أى أعداء القيمة العليا التى صارت قضية البطل الكبرى ومدار حياته وبطولته.

(٨)

عندما أدركت قريش أن إسلام عمر كان فاتحة مرحلة جديدة،أشد خطورة من ذى قبل،وادعى لاستنفار قواها وحشد جهودها للمقاومة،ولولا حماية بنى هاشم

لمحمد لكانت قريش أقدمت على العلاج الحاسم الذى فكر فيه عمر،حين توشح سيفه ليقتله ويقضى على الفتنة بأن يقتلعها من جذروها،وما تحب قبائل قريش أن تنشب فيها حرب أهلية دموية،ولكن قريشا قبيلة المعاملات والتجارب،فليكن حربها إذن لآل محمد وحماته تقوم على المقاطعة المدنية فى المعاملات والتجارة.

لا تزاوج مع بنى هاشم،ولا بيع ولا شراء معهم...هو الحصار المدنى والاقتصادى إذن،إلى حد التجويع،وكتبوا بهذا العهد وثيقة علقوها فى بيت أوثانهم بالكعبة،فكان ذلك من قريش مواجهة سلمية ردت بها على المواجهة التى نمت تحت حماية عمر بن الخطاب وحمزة،بإلحاح من عمر،وكان من نتيجة هذا الرد السياسى الاقتصادى العنيف من الأغلبية الساحقة على الأقلية المسحوقة،أن تراجع من المشركين من حدثتهم أنفسهم بالإسلام متشجعين بمظاهرة عمر.

هى حالة حرب إذن،لها كل مقومات الحرب فيما عدا الاشتباك العسكرى،وهى حرب قاسية لم يعد للرحمة ولا لصلات الرحم فيها مكان،ولم يكن عمر إلا ميالا فى طلب الإشتباك أيا كانت نتائجه،ولكن قيادته التى تستلهم وحى السماء كانت ترده عن عمل يعرض الجماعة كلها للخطر الذى لا يقف دون الفناء إذا انجرفت إلى ما يدعو إليه عمر.

فى فترة هذه المحنة التى طالت أكثر من ثلاث سنين،بدأ البطل المطبوع يتمرس بشئ لم يعهده اندفاعه الفردى من قبل،ألا وهو الانضباط والطاعة لما يؤمن بأنه أمر صادر من مستوى فوق مستوى البشر،وهذا ما يهون عليه الخضوع والإذعان،فلم يكن عمر خليقا أن تطيب نفسه بالطاعة لبشر مثله يدب على قدمين،لولا الإيمان الجديد الذى ملك عليه نفسه.

***

(٩)

طوال السنوات الشداد التى عاناها المسلمون فى مكة،كان عمر لا يزيد على أن يتحمل هذا العسف والضيم والمصادرة،شأنه شأن بقية المسلمين،ولا ينبرى للاشتباك فلو أنه كان منه شئ من ذلك لما فات الرواة أن يرووه عنه.

فهل كان هذا السكوت مناقض لطبع البطل المطبوع عمر؟

ويجيب نظمى لوقا:«بطولة عمر كانت مندفعة بغير زمام ولا لجام،قد تطامنت واتجهت إلى الداخل،إلى قمع هذه الاندفاعات الحيوية الجامحة،لكى تخضع وتستسلم،أليس الإسلام أن يسلم المرء لله وما يأمره به؟إنه الآن أسلم،وعليه أن يمتثل لما يصدر إليه من أمر الله،على لسان نبيه الذى آمن به،مهما خالف هذا الأمر ما ينزع إليه طبعه الجامح،ولست أتصور عمر فى هذه السنوات ساكن النفس ولا يجيش بالرغبة فى الاشتباك بالكفار،بل أتصوره دائم النزوع والثورة على هذه السلبية ولكن من يقوم بترويضه يزجره ويرد اندفاعاته،فيجعل طاعته امتحانا لإيمانه وتسليمه».

كان عنف الاضطهاد مدعاة لعنف إثارة طبع عمر العنيف،وهذا مقياس يبين صرامة ذلك الترويض الذى تعرض له،فما أشبهه بالترويض الذى يتحكم فى ثورات البراكين ويرغمها على قمع شواظها الجامح،وظل عمر إلى أن صدر الأمر بالهجرة إلى المدينة التى أسلم كثير من أهلها وبايعوا على نصرة النبى ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وآلهم،فهاجر فيمن هاجر.

أغرى عنف عمر بعض المؤرخين أن يزعموا أنه خالف أمر نبيه فى الاستخفاء عن الهجرة،فقالوا : هاجر الجميع مستخفين إلا عمر،تنكب قوسه وتوشح سيفه وتحدى القرشيين فى دار الندوة أن يتبعه منهم من شاء أن تثكله أمه،ولكن رواة

السيرة من الثقات لا يروون شيئا من هذا،وهو الدليل على أن البطل قد تخرج تلك السنوات من مدرسة الترويض،وصار أهلا لطور جديد.

ويذهب نظمى لوقا إلى أن الكف الشديد لجبروت عمر واندفاعاته لم يكن من الممكن أن يلغى حيويته الدافقة التى كانت موظفة فى اندفاعاته الجامحة طوال حياته حتى تلك الحقبة،والقانون الطبيعى أن القوى الطبيعية العاتية التى تقمع مظاهرها فى شكل معين لا يموت،بل تتخذ هذه القوى العاتية مصرفا آخر لها غير المصرف المسدود.

فلئن صادر الترويض سمات عمر الباطشة،فلابد أن قواه النفسية الجارفة اتخذت لها مجالا لنشاطها غير مجال الفعل البدائى،وليس أمامها فى هذه الحالة غير المجال الشعورى والذهنى،وهكذا ارتد نشاط حيويته إلى داخل سريرته،عوضا عن الاتجاه الخارجى،فانكب طوال تلك السنوات على تأمل مشاعره وأفكاره وتعميقها ومراقبة خواطره ونوازعه مراقبة يقظة غاية اليقظة حتى لا يفلت منه زمامها،فتخرج عن النطاق الذى رسمه النظام العام،فلم يكن مباحا فى آيات القرآن حتى ذلك الوقت قتال المشركين،ولم يحل سفك الدم،بل هى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،ودفع الأذى بالتى هى أحسن،وذلك نقيض نزالية عمر التى طبع عليها.

(١٠)

تمت الهجرة فبدأت مرحلة جديدة حاسمة فى تاريخ الإسلام،ومرحلة جديدة حاسمة أيضا فى جهاد البطل المطبوع الذى أصبح مروضا منضبطا فى تلك السنوات العسيرات التى سبقت الهجرة.

فبالهجرة لم يعد الإسلام مطاردا مضطهدا،بل صار له حمى مستقر مصون من

الأنصار فى يثرب،لاذ به المهاجرون وتآخوا معهم وصار أمام عمر مجال للنشاط يختلف عن المجال الذى كان يستثير نفسه فى مكة، كاختلاف الأمن والأمان عن الضنك والمصادرة.

وفى هذا الإطار الجديد يصبح لعنصر من أهم عناصر شخصية عمر الجديدة نشاط بارز مستفيض،وهو ما كان يتميز به دواما من حدة الذهن،واستقلال الرأى، وصدق الفراسة التى انصرفت كل قواه النفسية الجارفة إليها فى سنوات الترويض، وهى أمور تدعو إلى الحاجة الملحة فى تأسيس الدولة وسياسة الرعية،والاتصال بالمخالفين والتعامل مع المخالفين،وفى المدينة يثرب لأول هبوط المهاجرين إليها،كان فريق كبير من أهلها الأوس والخزرج،قد أسلموا ولكن بقى سائرهم على الشرك،وكان على أرباض المدينة معقل اليهود،فكان التعامل مع هؤلاء وهؤلاء يحتاج إلى الراى وإلى الكياسة وحسن السياسة.

وفى هذه الأمور بدأ يبرز نفاذ بصيرة عمر،وحسن دهائه رويدا رويدا،إلى جانب ما يدعو إليه الحال من الاستعداد لحرب قريش عندما يأتى أوان الحرب.

(١١)

وبعد الرسول صلى الله عليه وسلم ظهر عمر بن الخطاب إلى جوار أبي بكر.

يقول نظمى لوقا:«كان أبو بكر يفهم ويعرف جيدا مكانته عند عمر،وضخامة رصيده عنده،بحيث لا يتأثر هذا الرصيد بأى مقدار يسحبه منه،لكن ما أن يتخذ أبو بكر قراره،حتى يكون عمر أشد العاملين على إنفاذه،وأعنف المبادرين إلى عقاب من يخرج عليه».

وهكذا كان اختلاف طبع عمر عن طبع أبى بكر،وكان اختلاف منهج عمر الإبداعى المتصرف عن منهج أبى بكر المتبع عضدا وسندا لأبى بكر وعونا له لا

تقويضا لمضائه وفتا فى عضده.

حتى ما كان من أمر خالد بن الوليد،حين ظفر بمالك بن نويرة مع ما قيل عن إسلامه وقتله،وتزوج بإمراته على الفور،فأثار ذلك غضب قريبه عمر بن الخطاب،ورآه عدوانا واستغلال نفوذ فاحش،ولم ير أبو بكر ما يدعو لإغماد سيف سله الله،فلم يعزل خالد ولم يحاكمه ولم يفرق بينه وبين امرأة مالك بن نويرة كما يريد عمر.

كان عمر عنيفا فى سخطه على خالد،وهجم عليه وهو داخل إلى حضرة الخليفة،فنزع السهام التى يزين بها عمامته وكسرها وهو يندد على ملأ من الناس بخيلائه،وبأنه لم يكفه أن قتل امرءًا مسلما حتى نزل على امرأته.

ولم يقتنع بما كان من هوادة أبى بكر،واكتفائه بأدراء دية مالك بن نويرة،ثم رد السبى،ثم أعاد خالدا إلى إتمام حروبه ضد المرتدين،وظل عمر يلح على أبى بكر فى عزله،إلى أن أمره أبو بكر أن يكف عنه،ولكن غضب عمر لم يسكن،وظل يندد فى مجالسه بخالد،ويفتى بأنه يستحق الرجم على الزنا.

وقد قيل: أن عمر كان يغار من خالد فى سريرته،ولسنا نرى بشرا معصوما كل العصمة من نوازع الغيرة،والغيرة بين ذوى القربى معهودة شائعة،وهى بين الإخوة قد تكون أشد ما يمكن،وخالد من أخوال عمر لأنه من بنى مخزوم،وهو أيضا ابن عم أمه حنتمة،ولكننا لا نلجأ إلى تفسير موقفه بالغيرة،ولا نجد تفسيرا طبيعيا آخر لهذه الشدة العمرية فى أمر خالد.

لكن نظمى يشير مرة أخرى إلى هذه الواقعة،يقول:«ما عرفناه من نفسية عمر يجعلنا نوقن أن غضبه على خالد ثمرة طبيعية لطبعه وتقديسه لعقيدته،وفى مثل هذا الموقف لا ينقاد عمر لأبى بكر،بل يرى الصواب فى جانب غضبه لله وللدين،فهو

ليس إذن غضبا على خالد أساسا،بل غضبه عليه فرع عن غضبه لله ودينه،وهو ليس غيرة من خالد؛لأن غيرة عمر الصادرة صدورا طبيعيا جدا من طبيعته وطبعه إنما هى غيرة على العقيدة،لا من شخص أيا كان.

وظل هذا رأيه وإن ترك المسئولية لصاحب المسئولية الأولى،إلى أن تولى الخلافة فكان أول ما صنعه عزل خالد عن القيادة العامة،إنه الشعور بالمسئولية،ويقول نظمى:«إن الشعور بالمسئولية وبالفراغ الذى تركه النبى،هما اللذان جعلا عمر يطامن مثاليته قليلا حين نصح بالتساهل فى أمر الزكاة،فى مقابل بقاء أولئك الناس على إسلامهم بسائر أركانه،أما فى أمر يتعلق بصميم مسئولية القائد العسكرى،مثل قتل من أعلن إسلامه والزواج بامرأته ولم يجف دم زوجها،فمسألة لا تفسر على أنها تساهل مع جماعة أو قبيلة تريد أن تساوم،فى وقت ارتدت فيه قبائل كثيرة فطرحت الإسلام جملة،بل تفسر على أنها التواء بشرع الله عندما ينتهكه ذو قوة وبأس شديد،فتداس قدسية الدين الذى سوى بين الناس.

ويصبح الشرع نافذا على الضعفاء فحسب،وتصبح القوة هى الحق،وذلك ما كان عليه أمر الجاهلية،فكأنما ارتد أمر الحكم الإسلامى إلى الجاهلية بهذه التفرقة،إنه الإسلام بالإسم فحسب إذن،وقيام الجاهلية تحت قناعه،إذ أن معيار القيم عند الناس هو ما يمسهم منها عند تطبيقها وذلك هو البلاء الذى لا يمكن أن يسكت عليه عمر.

عمر الذى يطبق الشرع على الأقوياء قبل الضعفاء،وإلا عد نفسه دنيئا خسيسا،يستضعف الضعفاء،ويتحامى إغضاب ذوى السلطان وما هكذا نفسية البطل،لكن من ها هنا تبدأ البذرة النفسية للبطل الذى سيصبح المثل السائر على الدهر فى بطولة العدل والعفة والتقشف وإذلال فتنة السلطان».

(١٢)

وأصبح عمر هو الخليفة،وفى خلافته بلغ فى نسكه وتقشفه مدى قلما بلغه أحد،ولم يكن ذلك لنقص فى حبه مناعم الحس وطيبات العيش،فقد كان جسد فره وقوة حيوية عارمة،ولكن الذات الدنيا كانت كالفرس القوى الشموس الذى يصعب أن ينتاد إلا لفارس له من الشكيمة ما يفوق فى قوته قوة ذلك الفرس وشموسه،وكانت ذات عمر العليا التى فيها فطرته الخلقية وإيمانه هى هذا الفارس الذى لا يشق له غبار،ولا ينقاد لغيره الجواد الجبار.

كان عمر فى لبسه الخشن غير المهند من الثياب،وفى طعامه الخشن الذى كان يبذل لعامة المسلمين ما هو أفضل منه،ذلك العنيف على نفسه الذى يرقب نزواتها بحذر،ويعلم سوراتها وجماحها،فلا يفلت لها زماما ولا ينام عن خطراتها طرفة عين.

فلم يكن التزامه بذلك العيش الخشن مبالغة فى التدين،بل إنه كان يعرف الحلال ويرد نفسه عنه،كما يرد السجان سجينه المشاغب إلى الخبز القتار والحبس الإنفرادى فى زنزانة.

وبطبيعة الحال يحتاج الفارس الذى يروض الفرس القوى العنيد إلى العنف والغلظة والجبروت،وهكذا كان عمر غاية فى العنف والغلظة والجبروت على نفسه،وهو إذ يأخذ نفسه بالغلظة والعنف،لابد أن يبدو للناس بادى الغلظة والعنف فى تعامله معهم؛ لأنه شأن المثاليين جميعا،يرى أن المبدأ الأعلى لابد أن تكون له السيادة بغير هوادة عليه وعلى الناس كافة،وهذا التجرد من الهوادة يصدم الناس منه،لما فى ذلك من غلظة،وإنه لو علموا على نفسه لأفظ وأغلظ وأعنف.

ولأنه صار أداة صرفا للحق،فهو يطلب من الناس ذلك،وقد صار المسئول البشرى الأعلى عنهم،بعد رحيل صاحبه،وإن الناس ليرونه شديد العنف بهم فى

الحق،ولأنهم قريبو عهد بالنبوة،فللحق عليهم سلطان لا يدفعونه،لذا يتقبلون منه هذا العنف ولا يتمردون عليه،وإن صاروا ميالين إلى نقده وتسقط الأخطاء،ولكن عمر أشد تيقظا ونقدا لنفسه،فمن أين يجدون عليه مأخذا،وهو الأسوة لهم فى كل شئ؟

ويقول نظمى لوقا:«وإنا لنراه تنبه بفطرته الألمعية إلى أن دولة الإسلام دولة إيمان،وليست ملكا،تنبه إلى الفرق بين الخليفة والملك ، وهو لا يرى الملك بذلك المعنى إلا خائنا كذاك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا،وهو فى يقظته لهذا الفرق حاسم،أدرك تمام الإدراك أن الملك قد يقوم على القهر والغلبة،كما كان الحال فى الجاهلية عند العرب،وفى إمبراطوريتى الفرس والروم،أما دولة الإيمان فلا تقوم إلا على الإخلاص للعقيدة بحيث يكون الحق هو مناط السلطة ويكون الحكم كله لله».

(١٣)

لابد من الإشارة إلى ما كان من عمر فى عام الرمادة.

يروى ابن سعد الشئ الكثير من شدته على نفسه وعلى أولاده فى تلك السنة،لئلا يتميز عن الناس المطحونين بالقحط،حتى أنه فى تلك السنة لم يأكل إلا الخبز الجاف والزيت،حتى هزل بدنه الفاره وتغير لونه.

ويروى الطبرى بإسناده عن أبى هريرة :يرحم الله ابن حنتمة (أى عمر) لقد رأيته عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت فى يده،وإنه ليعتقب هو وأسلم،فلما رآنى عمر قال:من أين يا أبا هريرة؟قلت:قريبا،وأخذت أعقبه حتى انتهينا إلى صرار،فإذا صرم (خيام منعزلة) نحو من عشرين بيتا من محارب،فقال عمر:ما أقدمكم؟قالوا:الجهد،وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويا،كانوا يأكلونه،ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها،فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر،فما زال يطبخ لهم

حتى شبعوا،فأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة،ثم كساهم،وكان يختلف إليهم،وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك البلاء.

لقد حرص عمر فى عام الرمادة ألا يأكل وحده داخل بيته أبدا،بل يولم للناس من بيت المال،ويجلس ناحية لا يأكل مما يأكلون،بل أقل عادة مما يأكلون،ويمر به رجل من أصحابه فيدعوه إلى طعامه الخاص،فيتورط الرجل ويأكل معه الخبز الجاف والزيت،وعامة الناس تأكل اللحم،فإذا عاتبه قال له:إنما دعوتك إلى طعامى أنا،وذاك طعام المسلمين.

وكان يصنع هذا حتى يعرف الناس أنه لا يأكل خلسة خيرا مما يأكلون،بل الأمر بالعكس،أكان بهذا يرجو ثناء الناس؟أهو رثاء الناس،كلا ..بل هو العمل على أن يثقوا بعدل الحاكم وإيثاره،لأن الثقة بالعدل لا تقل قيمة عن العدل فى حد ذاته،إن قاعات المحاكم مرفوع فيها فوق رءوس القضاة:وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

وهى مكتوبة كى يثق الناس بالعدل،وعلنية القضاء مطلوبة لهذا السبب،لأن الخفاء مظنة السوء،والثقة بالعدل أساس الحمد، بل إنه ليس العدل فحسب،بل جمع إليه حب الناس أيضا والرحمة بهم والغيرة الآكلة عليهم،فنعم ولى الأمر عمر، وهكذا يكون أبو الأمة ولى الأمر فى مقدرته وحكمته وغيرته ويقظته وفطنته وحزمه ونزاهته وبره ورحمته ....وإلا فلا.

(١٤)

فى إدارته لأمور المسلمين،كان عمر بن الخطاب يعزل الولاة والأمراء مخافة الفتنة،وأخذا بالأحوط،جعل سياسته فيهم نقيض مبدأ القضاء فى الجرائم،فهو لا يأخذ المتهم بالشبهة،بل بالبينة القاطعة،وكل شك يفسر لمصلحة المتهم ويؤدى

لبراءته لعدم كفاية الأدلة،أما الولاة فهو يأخذهم بالشبهة لأن الأمر لا يتعلق بضرر يلحقهم،بل يلحق الحكم والدولة بأسرها،..«وهان أمر يصلح الناس أن يبدلهم أميرا محل أميرا».

ومن هذا نفهم أن عمر نظر إلى الأمراء نظره إلى نفسه،فهو فى نظر نفسه أداة للحق ودولة الإيمان وخدمة الناس كافة،وهم فى نظره أدوات لخدمة الناس من رعيتهم،مجرد أدوات وأيما ضرر خيف من أداة،فالأحوط طرحها واتخاذ غيرها.

وأما رأيه فى الحاكم الفاسد الخرب الذمة الذى يستغل منصبه أو نفوذه،وما يجب أن ينزل به من العقاب،فيرويه الطبرى بسند مرفوع إلى موسى بن عقبة،على النحو التالى:أتى رهط إلى عمر فقالوا:كثر العيال واشتدت المئونة فزدنا فى أعطيتنا،فقال عمر:فعلتموها جمعتم بين الضرائر واتخذتم الخدم من مال الله عز وجل،أما والله لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر،تذهب بنا شرقا وغربا،فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم،فإن استقام اتبعوه وإن جار قتلوه،فقال له طلحة:وما عليك لو قلت إن تعوج عزلوه،فقال عمر:لا القتل أنكل لمن بعده.

ويقول نظمى لوقا:«وحسبك هذا إعظاما للنزاهة،وكراهة ومقتا للجور وفساد الحكم،ولكن هل كان غير منطوي على حب أو مودة أو تقدير لهؤلاء الرجال الكبار، ومنهم أمين الأمة أبو عبيدة،وسعد بن أبى وقاص الذى كان من الستة الذين حصر فيهم عمر الترشيح للخلافة،بل كان يحبهم ويقدرهم،وينادى ببراءتهم من كل ناحي،ولكنه يفصل بين الحب ومصلحة الدولة،فهم بمنظور العمل ومصلحة الدولة مجرد أدوات،كما أنه هو أداة عليا وحذره من نفسه الدنيا وفتنتها لا يفتر،أما بمنظور شخصه فهم محبوبون أثيرون،وهو لا يخلط بين ما يخص شخصه وما يخص مصلحة الدولة،ألم أقل لك إن أمره مع الولاة عجب؟..ولكن إذا عرف

السبب...ونعم ولى الأمر عمر..ونعم المثل للحاكم الحكم الأمين هو.

(١٥)

من أهم ما كتبه نظمى لوقا عن عمر بن الخطاب كان عن تعامله مع أهل الذمة.

يقول نظمى:«كانت حرية العقيدة سائدة فى عاصمة الإسلام نفسها على عهده،فعاش فيها أفراد من النصارى ومن اليهود،معظمهم من أصحاب الحرف أو الأسرى الوافدين من الفتوح،وحسبك أن أبا لؤلؤة الذى قتل عمر يقال: أنه كان عبدا نصرانيا،وأن غيره من الأحرار كانوا فيها من النصارى وبعضهم من اليهود».

بل كان لعمر عبد نصرانى نجيب اسمه أسبق،عرض عليه عمر أن يسلم ويتخذه عاملا له على بعض الأمصار،فأبى أن يترك النصرانية،فما كان منه إلا أن أعتقه لوجه الله الكريم وقال له:اذهب حيث شئت.

وفيمن بقى من اليهود بالمدينة كان شيخ أعمى رآه يسأل،فتألم عمر وقال:ما أنصفناه ..أكلناه لحما ونرميه عظما.

ثم أمر بتسجيل سائر أمثاله من العجزة الذميين كى يكون لهم من بيت مال المسلمين ما يكفيهم الحاجة،وما كان اليهود أحب الذميين إليه بطبيعة الحال،وهذا هو معنى أنهم أهل الذمة وهو يتأدب فى هذا بأدب نبيه الذى قرر أن من آذى ذميا كان النبى خصمه يوم القيامة.

فإذا تركنا المدينة رأينا قبيلة تغلب العربية،التى سيكون منها الشاعر الأخطل فيما بعد باقية على النصرانية لا ترضى عنها بديلا،ويذكر الرواة أن الأخطل كان فى بلاط بنى أمية يعلق فى صدره صليبا ضخما،وأنفت تغلب أن تدفع الجزية،فاللفظ لا يتفق وما للعرب من أنفة وحمية،وأبوا إلا أن يؤدوا الصدقة،التى يؤديها المسلمون،واشتد الخلاف وانتهى الأمر إلى أدائهم صدقة المسلم مضاعفة،وليس هينا أن يلين عمر لهم

obeikandl.com

هـذا اللين،حفظـا لكـرامتهم وصـونا لأنفـتهم ويـروى عنـه أنـه قـال:نحـن نسـميها جزية،وسموها أنتم ماشئتم.

ولكن الأمر انتهى إلى أنها الصدقة الواجبة على المسلم مضاعفة،وما كانت الجزية إلا مـا نسـميه اليـوم بـدل التجنيـد،أى مقابـل قيـام المسـلمين بالـدفاع عـن الـذميين عسكريا؛ لأنه لا ينخرط فى سلك الجندية بالدولة الإسلامية- والدولة يومئذ دينيـة لا قومية- أحد من غير المسـلمين،إنها ضريبـة الـدفاع وضريبـة الأمن،ومقطـوع بـأن الذميين فى ذلك العهد كانوا لا يدركون أيضا أن الدولة دينية لأن القومية لم تكن قـد برز مفهوها بروزه فى العصور الحديثة،ولذا كانوا يقبلـون تلـك الجزيـة فرحين،وأمـا موقف التغالبة فمرده إلى الأنفة العربية والمجد التالد فيها.

وكان الوليد بن عقبة حين غزا بنى تغلب قـد فـرض علـيهم الإسلام،فشكوه إلى عمر،فأنصفهم وأدان الوليد بن عقبة،فالدين لا يجوز أن يفـرض عـلى أهـل الكتـاب بالسـيف،إلا مـن شـاء الإقامـة بجزيـرة العـرب نفسـها،فهو مخـير بـين الإسـلام أو الإرتحال عن قلـب الجزيـرة إلى أطـراف العـراق أو الشـام،وما كـان التغالبـة فى قلـب الجزيرة،ولكنه اشترط عليهم ألا يمنعوا أحدا من أفرادهم إن أراد اعتناق الإسلام.

وكـان لهـذا الإنصـاف العمـرى أثـره،فمنهم مـن أسـلم ومـنهم مـن ظـل عـلى نصرانيتـه،ولكنهم رفضـوا مسبة الجزيـة،وذهب وفـد مـنهم إلى المدينـة لمفاوضـة عمر،وتوسط على بن أبى طالب عندما اشتد الحـوار، وقـال لهـم عمـر فى حسـم:أمـا نحن فنسمى ذلك جزية،وسموه أنتم ما شئتم.

فالآن على قلب عمر وقال له:وماذا تريد منهم وقد ضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة،فرضى منهم بالصدقة بدلا من الجزية.

وبيت القصيد مـن هـذه الواقعـة أنـه كـان حريصـا عـلى عـدم إعنـات المتمسـكين

بنصرانيتهم،وكل ما هناك أنه كان لأسباب تتعلق بالسياسة العليا قد قرر ألا تقيم قبائل غير مسلمة فى داخل الجزيرة العربية،زيادة فى الحيطة،حتى لا يوجد ما يمكن أن يكون طابورا خامسا فى قلب الدولة لحساب المتربصين.

وقد بدأت سياسته هذه مع أهل نجران فى جنوبى الجزيرة العربية،وكان النبى قد عاهدهم على الجزية،فكلف عمر عامله يعلى بن أمية أن يجلى أهل نجران إلى حيث يختارون من الأرض التى بها قوم على ملتهم خارج جزيرة العرب.

وشدد عمر على يعلى بن أمية ألا يجبرهم على الإسلام،ولا يغريهم أو يضغط عليهم ليفتنهم عن دينهم،فوافقوا على الارتحال إلى العراق،وكتب عمر إلى عامله هناك أن يوسع لهم فى الأرض التى يختارونها بها يسعهم وييسر لهم الحياة وسط جيران من ملتهم.

وكان مما أوصى به يعلى بن أمية أيضا أن يشترى منهم بمقابل سخى ما يتركونه من العقار والأموال التى لا تنقل،وأن ينقلوا معهم صلبانهم وأدوات شعارئهم كما يحبون ويشتهون.

وكذلك فعل أيضا بعشائر اليهود أو جيوشهم الباقية فى الجزيرة بخيبر أوفدك فأجلاهم إلى الشام مع أشباههم من أهل دينهم هناك،وأجزل لهم التعويض عن ممتلكاتهم وأرضهم،ولم تكن أسبابه من قبيل التحامل أو التعصب،بل هو إجراء لأمن الدولة،فى عصر كانت الدول فيه دينية لا وطنية ولا مدنية،وللدليل على نفى التعصب عنه أنه كان يساوى فى الخصومة أمامه بين اليهودى وعلى بن أبى طالب نفسه عند القضاء بينهما،فمثله لا يظن به التحيف والتعصب.

ثم نأتى إلى سياسته فى أرض أهل الكتاب التى فتحها المسلمون،فهم فلاحون يزرعون تلك الأراضى ويعيشون منها ويمتلكونها ويتوارثونها،وكان الأمر جاريا

obeikandl.com

على عهد النبى – بموجب سورة الأنفال – على تخصيص الخمس من الغنائم للنبى أو الخليفة بعده،وتقسم أربعة الأخماس على الجند الذين تم على يدهم الفتح،وها هو فتح مبين شمل سواد العراق،فلا عجب أن يتوقع المجاهدون الفاتحون ذلك التقسيم للفيء ويرونه سنة،بل أمرا سماويا نص عليه القرآن فى تلك السورة.

ولكن عمر برؤيته الاقتصادية والسياسية وبعده عن الطمع العاجل والتعصب، رفض هذا الرأى؛لأنه رأى فى ذلك مضيعة لأهالى تلك البلاد،وإنشاء فى الوقت نفسه لطبقة من كبار الملاك من المسلمين المعاصرين،ثم لا يجد سواهم من المسلمين فى يدهم شيئا،لأن ملاك هذه الأراضى الجدد سيورثونها أبناءهم.

وأيد صديقه عبد الرحمن بن عوف رأى الجند والقواد فى التقسيم،ولكن عمر أصر على رأيه محتجا وبحق أنه لتفتح أراض واسعة كهذه بعد عهده،فماذا عن المسلمين بعد عهده؟وهل تسود الطبقية والتحاسد بينهم؟

وطلب جنوده التحكيم بين أهل الشورى وبسطوا القضية ثم قال عمر:إنى أعوذ بالله أن أركب ظلما،ولكنى رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى،وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم،فقسمت ما غنموا من أمواله بين أهله،وأخرجت الخمس فوجهته على وجه،وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون إلى الأبد فيئا للمسلمين،المقاتلة والذرية لمن يأتى بعدهم ،أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها؟أرأيتم هذه المدن العظام لابد لها من أن تشحن بالجيوش ولابد من إدرار العطاء عليهم،فمن أين يعطى هؤلاء إن قسمت الأرض بينهم.

وهكذا فرق عمر بين النص الذى يتصل بالعقيدة والعبادة،والنص الذى ينظم مصالح الناس،فرأى أنه إذا تغيرت أوجه المصالح،كان الأوجب والأوفى بالذمة

والأمانة وحق الله هو الأخذ بالأصلح،وكانت نتيجة هذا برا بأهل تلك البلاد،وقد دخلوا فى ذمة المسلمين،فبقيت لهم أرضهم،يؤدون عنها الخراج،ويؤدون عن أشخاصهم الجزية،وهم بعد هذا فى أمان الله.

(١٦)

وفى النهاية وتحت عنوان «مات عمر ..عاش عمر» ،يكتب نظمى لوقا:«على غير توقع طعن عبد فارسى موتور عمر بن الخطاب،وكثرت الأقوال فى أمر مصرعه أهو مكيدة سياسية من خصوم العرب المهزومين الذين زال سلطانهم وملكهم على يديه،أم هى جريمة فردية.

وما اهتز عمر بل كان مثلا راقيا رائعا للشجاعة فى مواجهة الموت،وشغل نفسه بتدبير أمر الدولة من بعده كى تنتقل السلطة العليا انتقالا هادئا إلى خليفته الذى يختاره أهل الشورى الذين عينهم.

أجل مات عمر والموت نهاية كل البشر،ولكن لئن مات عمر البطل وعمر الرجل فليحى عمر المثل ما بقى للعظمة فضل مشهود وذكر ممدود وهمة يستحق صاحبها الثناء والخلود».